من غرائب النسيان . . . !

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

كنا جماعة نتحدث فى شتى الشئون ، فأطلعنا الأستاذ محمد عبد الغنى حسن على كتاب فرنسى طبع حديثاً نقل فيه صاحبه مقتطفات من الشعر العربى إلى اللغة الفرنسية ، وكانت إحدى هذه القصائد بعنوان « تحت الشراع » للأستاذ عبدالغنى ترجمها الناقل عن مجلة « الرسالة » عام ١٩٤٠ . وتتبعنا الشعر الفرنسى محاولين رده إلى أصله العربى فعجزنا ، وهنا طلبنا من صاحب الشعر — أى الأستاذ عبد الغنى — أن ينشد شعره الذى نظمه ، فأجاب : لقد نسيت ! قلنا : ألا تذكر مطلع القصيدة ؟ قال : لا . قلنا : ولا بيتاً واحداً ؟ قال : لا . وهنا بلغ منا العجب مبلغه ... كيف ينسى صاحب الشىء شيئه هذا النسيان الغريب !

ومن المعروف أن كثيراً من الشعراء يحفظون شعر أنفسهم ولا ينسونه وينشدونه فى المناسبات . ومن هؤلاء على سبيل المثال صديقنا الشاعر غنيم . غير أن السؤال الذى يحتاج إلى جواب هو : لما ذا ينسى المرء أعماله وآثاره ، وبمعنى آخر : لما ذا ينسى نفسه ؟ !

قلت فى تعليل ذلك — وسكت الأستاذ عبد الغنى عند هذا التعليل دون تعليق — : إن الشاعر شخص مبدع خالق مبتكر قبل كل شىء ، مثله فى ذلك مثل الفنان الذى يبدع آثاراً فنية ، كالتماثيل التى يصنعها النحات ، أو اللوحات الزيتية التى يرسمها المصور ، والشعر كالتمثال أو كاللوحة الزيتية ، يتركب من شيئين : من المعنى الخاطر فى الذهن ، أو الفكرة المبتدعة فى صفحة الخيال ، ومن مادة يصوغ فيها الفنان هذه الفكرة ؛ فمادة التمثال الرخام أو النحاس ، ومادة اللوحة الألوان ، ومادة الشعر الألفاظ . وكثيراً ما يسخط الفنان على عمله فلا يرضى عنه ، وعندئذ يحطم النحات تمثاله ويكسره ويأبى أن يظهره ، أو يمحو المصور لوحته ، وقد يتركها دون أن يتمها ، أو يأبى وضع اسمه عليها . تعرفت بمصور بمدينة المنصورة كان يشتغل مدرساً بها ، اسمه الأستاذ حلمى ، ثم طلبت منه صورة زيتية من ريشته أحتفظ بها تذكاراً لصداقته ، فأحضر لى صورة تمثل منظراً ريفياً على شاطئ النيل ، ولم تكن ممهورة باسمه ، فقلت له : ضع عليها خاتمك ، فرفض . ولم أثقل عليه ، لأنى فهمت ما يقصد : الصورة أعجبتنى ، ولكنها لا تعجبه ، ولو أنه صانعها !

فإذا كان الأستاذ عبد الغنى قد نسى شعره ، فذلك لأنه فنان يسخط على ما يفعل ، ولا يرضى عما يبدع ، إذ يتطلع دائماً إلى الكمال والترقى . ولو رضى الناس عن أعمالهم ما تقدموا . وأكبر الظن أن الصورة الشعرية تكون فى الذهن بالغة غاية الروعة ونهاية الكمال ، غير أن تحقيقها فى المادة ، وصياغتها فى أثواب من الألفاظ هو سر نقصها . والمادة هى علة النقص فى الوجود .

وأذكر حادثة أخرى من نوع آخر :

ركبت الترو من عماد الدين ، حتى إذا بلغت مصر الجديدة فى إحدى محطاتها المتوسطة ، سألنى أحد الركاب — وكان يجلس أمامى — هل هذه الحافظة لك ؟ فنظرت إلى جانبى فرأيت مكان الراكب الذى كان إلى جوارى خالياً ، ورأيت حافظة نقود ليست حافظتى ، قلت : إنها ملك الراكب الذى نزل ! وهنا سألت نفسى : ما شكله ؟ هل هو شاب أو شيخ ؟ هل هو هزيل أو بدين ؟ هل هو أسمر أو أبيض ؟ كل ذلك لم أذكر منه شيئاً كأن أحداً لم يجلس إلى جانبى . ثم تناولنا الحافظة وفتحناها ووجدنا فيها أوراقاً باسم « عماد » . وبدا لى أن أنادى هذا الاسم لعل صاحبه يستجيب ، فقلت : عماد ... والتفت شاب أوشك أن ينصرف فى أعماق الشارع ، ولوحت له بالحافظة فأدرك المقصود ، وعاد مسرعاً وأخذها شاكراً . هنا فقط تذكرت ؛ أو على الأصح تعرفت عليه ، وبان لى أننى تأملت هذا الشخص حين كان إلى جوارى ، إذ كان يقرأ كتاباً باللغة الإنجليزية فيه أشكال رياضية ، واستنتجت عند ذلك أنه طالب فى كلية الهندسة أو كلية العلوم ، وكان يلبس بنطلوناً وقميصاً فقط . ثم سألت الراكبين : هل يذكر أحدهم هذا الشخص ؟ فقالوا جميعاً : لا . قلت فى نفسى : لو أن هذا الشخص ارتكب حادثة أو جناية ، ولم تكتشف إلا فيما بعد ، ثم طلبنا البوليس إلى الإدلاء بالشهادة فما ذا كنا نجيب ؟ ثلاثة رجال لا يتذكرون شيئاً عن شخص رابع ظل يجلس معهم نصف ساعة على الأقل ، ووقعت أبصارهم